

فصل في الشوق والحزن

« هيمه » عينية

رمان نبيش

من زاوية البحث عن المواقف .

الكتابة في ديوان « الحب

لثلاثة القرون »

فيهد القادر الشاوي

1 - تبدأ قصيدة « هيمه » من ديوان الحب مهزلة القرون (1)

بتسجيل بعض المواقف الفكرية انطلاقاً من فهم عينية محمد الحمري ،

الشعر نزار قباني كما يلي د

(ا) ان نزار يتمتع الناس بالكلمات .

(ب) بالذات والقبليات .

(ج) نزار أنفق عمره في الغرام مراحقا .

(د) يسود آلاف الصفحات .

(هـ) يردد الأزمات .

من المقيّد بدءاً ، في محاولة لاستشراف ابعاد التجربة الشعرية عند

الحمري ، الاشارة الى المفهوم الذي يعطيه نزار لدور الشعر . نزار ،

« من يكوم الانسان شاعرا في الوطن العربي ليس معجزة ، بل المعجزة

الا يكون » (2) .. الجاحظ (الشعر فضيلة العرب) . نفس الموقف السذّي

ابدعه الجاحظ من منطلقات واقع مغاير تماما ، بحكم التطور ، يسقط نزار

اطلاقية اخرى تؤكد ذات الجاحظ وفكره . الشعر المعجزة ، الشعر الفضيلا

وانعدام كينونة الشعر بالنسبة للمواطن العربي « المبدع » هو المعجزة

في اجاب صورها . يلتقط نزار بكل حذاقة مقومات الفكر الخرافي الذي قولبه

الجاحظ اعتمادا على تجربة واقع عصم ، ليجعل منه فكرا قائما خارج

التطور ، فكرا يشكل ولا يشكل أي ذلك الفكر الذي بيدع الفرد ، دون أن

يكون الفرد هو الذي بيدع الفكر ويطوره ويدفعه الى الامام ، تحقيقا

للفتحة التي يود أن يصل اليها نزار في الاخير ، بفضل الوظيفة الابداعية

عن مجمل الواقع الذي يشكل الفرد .

ايضا الشعر عند نزار هو الرقص ، هو الرقص باللغة ، والشعراء

يؤدون رقصة متوحشة ، لان الشعر مزروع في الشاعر ، الشعر حصان

جهيل الصميل ، كل واحد يركبه على طريقته الخاصة ، الشعر اذن سائل

شديد التبخر والتمدد . فأين الحقيقة الشعرية ؟ . نزار بكل بساطة وسذاجة
يجيب لا شيء . ويكون عنبية محقا فيما ذهب اليه من خلال قصيدة «همسة»
من أن نزار (لا يرى مليون قلب غام بالعبرات — والاخرين مشردين على
الثرى آمالهم تنساب في الفلوات) (ص 62 ، الديوان) .

2 — كيف يفهم الحمري دور الشعر في سنة 1968 ؟

في معرض الرد على نزار ، يرمى الشاعر فقط ببعض المواقف ، لا
تشكل رأيا تاما ، ولكنها مع ذلك هي الدليل الان في فهم ما يقصده عنبية :
(كل القصائد في الغرام هزيلة — والشعر كان لاكدج الطبقات) (ص 64) .
مبدئيا ، اطرح التساؤل الاولي ، هل استطاع الحمري أن يخضع
مجمل رؤياه الشعرية في الديوان ، لروح هذا البيت الشعرى الرائع ؟ وايضا
التساؤل الجزئى : ما المقصود بقصائد الغرام ؟

عن السؤال الاول ، من يقرأ الان ديوان « الحب مهزلة القرون » لا
بد وان يخرج بالملاحظات الآتية :

+ **الملاحظة الاولى** ان الشاعر الحمري ينحاز في الجزء الاول من
الديوان ، الى جهة التعريفات الخرافية التى اسقطها نزار على دور الشعر
وهدهمه ، فالشعر — المعجزة الذى لوح به قباني هو ذاته الافتراض الذى
لقماته المؤسسات الاقطاعية والبورجوازية السائدة في العالم العريى ،
للتدليل على صحة (الاحداث التى تمطرها السماء) (3) . اى ان التعامل
الشعرى مع الوقائع الموضوعية المحددة يتم وفق معطيات ذاتية آسرة ،
يتغلب فيها عنصر الشعور الحسى على عنصر الوعى . ومضى كان الشعور
الحسى هو الموجه ، اى هو الذى يقود الى « الحقيقة » — دون أن تكون
موضوعية — يكون من المفروض ، ولا أقول من الطبيعى ، أن تكون
للرؤية التى يهتدى بها الشاعر في معرفة « كل شيء » ، هى رؤية الذات
في تعرفها على الواقع القائم خارجها . الوعى لا يكون الا تعامل موضوعيا
مع الواقع الملموس . عنبية في قصائد (رؤيا — حلم — لو تعلمين — بعد
أيام — انتظار ...) ، ينحاز بشعور حاد ومتوقد الى جانب المرأة الخرافية
النزارية مع فارق واحد ، فهى عند نزار للامتاع الذاتى ، وهى عند الحمري
التى تعذب .

+ **الملاحظة الثانية** : ان الشاعر الحمري من حيث يقف موقفا
عدائيا لفظا من النتائج النزارى شعرا ، يعتمد بالمقابل الى النهل من قاموسه
الشعرى ، دول أن يكون ذلك موقفا فكريا يؤدى الى تمثيل تجربته كاملة .
ان هذا القاموس — المرأة الخرافية ، الذى تعارف عليه القراء في شعر نزار
على امتداد فترة طويلة ، تظهر بعض مفرداته واضحة تماما ، عند ما يتعامل
عنبية مع المرأة والحب . يبقى المقصود بالضبط أن الشاعر عند ما يجند
كامل شعوره لكى يتخذ موقفا مبدئيا من المفهوم الشعرى النزارى ، يقصر

من البعد الحدود في تجاوز ذات المفهوم ، ومن ثم يسقط في لسوك بعض الملاحظات - وان كانت في معناها تؤدي غرضا قائما بذاته - الا انها المفردات التي اسعملها نزار او اى شاعر آخر . اننا هاهنا بطبيعة الحال لنعلم الموقف الذى ينقض ذاته « ببراءة » الشعراء (عند ما يتعاملون مع موضوعات تكون ذات ارتباط بمواطنهم) ، وينقضه لانه لا يقوى على تجاوزه . حقيقة ان تجربة الحمري تقف امامنا شاهدا على « طراوتها » اى انها التجربة الابتدائية التى خبرها الشاعر في موضوعات لها علاقة وثيقة بتجربته في الحياة الاجتماعية ، الا انها التجربة التى كثيرا ما يفلح في فلسفتها وتنفو البورجوازية الصغيرة (4) (انظر النص رقم 1 في آخر البحث) .

+ الملاحظة الثالثة : يلتقى الشاعر الحمري مع نزار قبائسى في طرح جملة من الموضوعات المتعارف عليها في (قصائد الغرام) . ولهذه الموضوعات علاقة مباشرة بالمرأة والحب واللقاء الاول والعينين والحزن ، اى جملة الموضوعات التى يستهلكها الشعراء في طور حداثتهم الفنية والادبية (ان هذا الطور المعبر عنه هنا ليس ثانونا مطلقا يمر به جميع الشعراء) تحت واقع شرطين : الاول ، الواقع الاجتماعى خلق من الحمري الشاعر الذى وجد المرأة ، وايضا خبر عالم المرأة ، ومن ثم فتت اعضاءها الى جزئيات صغيرة ، وجد احساسه فيها لذة والما . الثانى ، مستوى الوعى الطبقي ، وهو نفسه حدد رؤيا الشعارين تجاه المرأة ، وبه كان تعامل نزار مع المرأة تعامل بورجوازيا صرفا وبدون تحفظ (يقول نزار انه اراد بذلك ان يصدم الوجدان العربى التقنيدي ، وينسى ان البورجوازية تنسف كل الصلات العائلية) . وبه ايضا كان تعامل الحمري مع المرأة تعامل بورجوازيا صغيرا ، الا ان طابعه العام هو التحفظ والاعفاف والتسليم بقوة الاقدار في توفير الحظوظ لمن تشاء وبما تشاء (5) (النص رقم 2) .

3 - من ضمن هذه الملاحظات اذن يمكن الان الاجابة عن السؤال الجزئى الذى طرحته من قبل بخصوص ما المقصود بقصائد الغرام ؟ ان هذا التعبير ذاته ، العام ، يفضح الى اى حد استطاع الحمري ان يلتزم بموقفه المبدئى من شعر نزار ، والواقع انه لا يلتزم به ، لانه يسقط من حيث يقسم الشعر الى غرام ولا غرام في ذات المفاهيم المتعارف عليها في الشعر العربى . حقيقة ان نزار ذوب « الغرام » في شؤونه الصغيرة والكبيرة ولكن ايضا من منطلق اعتبار ان هناك « ذلك » الفرق بين الرجل والمرأة ، وهو نفس المنطلق الذى تحكم في تجربة الحمري على امتداد (الحب مهزلة القرون) . ان المقصود بقصائد الغرام بكل تحديد - ودائما من خلال فهم الحمري - ذلك النوع المرتبط بالعاطفة الانسانية ، اى بالجانب الذاتى من حياة الشاعر ، ان كل ما يتم في عالمه الداخلى هو بطريقة او

بأخرى من صنعه ويكشف عن حاله ، وقصائد الغرام هي لسان الحال ،
اي لسان مجموع الرغبات الذاتية التي يكنها الشاعر تجاه موصوف آخر
« المرأة » . ان الحمري عند ما وضع نزار من ضمن شعراء الغرام ،
بالطبع صنع لنفسه كادرا خارجهم ، كما لو أنه أراد ان يقول : اننى لست
شاعر الغرام . وبطبيعة الحال سيقف القارئ في عالم تجربته على نفس
المقومات التي تحكمت في شعراء الغرام وفرضت عليهم مواقف مختلفة
ومتباينة ، بحكم اختلاف وتباين مستوياتهم ونظرتهم الى الحياة ووضعهم
الطبقى ووعيهم بالتالى ، وتكون الخلاصات : هذه التناقضات الواضحة
التي طبعت موقف الحمري تجاه شعر نزار برمته ، وبالتحديد ذلك التناقض
بين موقف ذاتي وحالة موضوعية قائمة ، الموقف الذاتى في تمثل التجربة
العاطفية بكل أبعادها ، والحالة الموضوعية في العدول عن التجربة
العاطفية والالتزام بالواقع المرير ، أى الالتزام بنقيض الشعور البورجوازي
الصغير ، نظما وممارسة .

4 - من هنا فقط يمكن أن نخلص الى تحديد فهم الحمري لدور الشعر
في 1968 ، هذه السنة بالضبط لاعتبارين اثنين :

(ا) هي الفترة اننى صدر فيها الديوان ، رغم انها لا تعنى بأى حال
الفترة الناضجة في تجربة الشاعر ، انها فقط الفترة الابتدائية التي تمرن
فيها على أداء اللغة والتعبير عن الاحساسيات العاطفية ، والتقاط بعض
القضايا الاجتماعية دون أن يمتلك رؤية واضحة حيالها ، انه بمثابة الشاعر
الذى يبحث عن كل شىء ولا يمتلك اى شىء .

(ب) هذه السنة أيضا تعكس بوضوح جملة من التطورات الموضوعية
في الساحة الوطنية (بداية نهوض الحركة الجماهيرية اضرابات عمالية
واسعة انتفاضات فلاحية ...) عربيا ، هزيمة يونيو 1967 وما تلاها من
احداث جسدت بالماموس هزيمة مجموع التكوين الطبقي البورجوازي
الصغير للانظمة الوطنية في العالم العربي ، وسقوط برامجها السياسية
والعسكرية ، انها البداية الفعلية للمقاومة الفلسطينية ...

وبالتحديد في عملية البحث الجدى عن المفهوم الشعري عند الحمري
في هذه الفترة بالضبط ، دون الوعى بهذين الاعتبارين ، سيكون بالفعل ،
ضربا من البحث عن مجهول . الا أن هذه العملية ذاتها ستكون ناقصة ما
لم نفترض ان الديوان (من حيث الفترة الزمنية) وبالنسبة للواقع الموضوعى
في بلادنا يأتى سابقا لبعض التطورات السياسية التي تبلسورت عمليا في
1968 . ان الاقرار بهذا لا يعنى على وجه الاطلاق تنحية وعى الشاعر عن
محمل التطورات التي شهدتها الساحة الوطنية - العربية .. ولكنه يعنى بكل
بساطة وجود الشاعر خارج هذه الساحة وممتلكا لوعيه التام ، ولكن لفائدة
الموضوعات التي اختارها كمستويات للتعبير في ديوانه (الحب مهزلة القرون)

هي نفس الموضوعات التي يربطها خيط الاهتمامات الذاتية من الحب في
أجلى صورته الى الواقع في بعض جزئياته .

5 - ان الحمري عند ما حاول كما سبق ان اشرت ، من قبل ، ان
يتخذ موقفا مضادا لانزار ، حدد مواقفه الفكرية شعرا على النحو الاتي :
الموقف الاول : ان الشعر ليس لذاته او لذات الشاعر ، بل لذاته
ممزوجة بذوات الاخرين (ص 62) .

الموقف الثاني : ان الشعر يجب ان يوظف لصالح الجباع
« والاخرين المشردين » « وللمليون قلب غام بالعبرات » .

الموقف الثالث : كل القصائد في الغرام هزيلة - والشعر كان
لاكدح الطبقات

ان كل هذه المواقف تبدو متقاربة في تحديدها لدور الشعر وهدفه ولكن
بشكل عام . اي من زاوية اخضاع العملية الابداعية لصالح عملية التطور
داخل المجتمع ان التطور داخل المجتمع يعنى عمليا الاقرار بدور
الصراع الطبقي رغم ان عنيفة الحمري لا يفهم ذلك عند ما
يتكلم مثلا في (حديث عن المعركة) عن فلسطين ،
او (الاكواح) في (الخبر الاول) (ص 78) . ورغم تقارب هذه المواقف الا
انها تعطى انطبعا واضحا عن الفهم المنظور - بالنسبة للواقع الذي عاشه
الشاعر - لدور الشعر في مجتمع مختلف اقتصاديا واجتماعيا ... الا ان
الصفة العامة ، غير المحددة التي تميز فهم الحمري لدور الشعر ،
تعكس بوضوح **الموقف** الذي يتراوح فيه بين الانحياز الفعلى جهة نشدان
التطور ، وبين الانفراد بذاته لفترة اشباع نهها العاطفى ، وتعكس أيضا
التذبذب الذى يطبع مواقف المثقفين كقئة خاصة غير متجانسة ،
ترفض ضمن ما ترفض النظام والتنظيم . ومع ان هذه السلبيات يمكن
اعتبارها بداية تحول جدى في حياة الشاعر ، يبقى ذلك التساؤل معلقا عن
كيفية تجلّى هذا التطور في حياته ، وبصفة خاصة في انتاجه الشعرى
كموقف مبدئى وان كان لفظيا .

6 - ازاء تحديد مفهوم واضح لدور الشعر ، ينشطر الديوان على
نفسه في محاولة لتأكيد اتجاهين :

الاتجاه الاول - الاهتمام الكبير بالذات ، أى الاهتمام بما يربطها بعواطفه
المنفردة ، او التي تبدو صعبة المنال .

الاتجاه الثانى - الاهتمام الصغير بالواقع ، أى الاهتمام بما يجعل الشاعر
حاضرا ولو حضورا شكائيا (على اعتبار أنه تحت تأثير استلاب ذاتى)
في حلية الواقع الجمعى ، من ناحية ازاء لاصراع فيه ، ومن ناحية أخرى
ازاء مناصرة غير مشروطة للطبيعة التطبيقية التي يكون (هو) عنصر
تجريض لارائها .

من البديهي أن الاتجاه الأول في الديوان يستغرق مرحلة (طفولة الشاعر) بكل آلامها وآمالها ، ومن ثم ينفرد بخصوصية التعبير عن الذات في الوقت الذي أراد الحمري أن يجعل بينها وبين الواقع تمازجا ، رداً بذلك على (القباني) . إلا أن هذا الرد الشكلي بطبيعة تردده بين اختيار رأى منفرد . أى رأى خاص ومبتدع من الموضوع الذى وجد أمامه للمرة الأولى (المرأة - الحب) ، وبين تجاوز نفس الموضوع أو طرحه على الأقل في صيغة مختلفة عن « موديل » نزار . الواقع أننا أمام اختيار صعب طالما أن الحمري فضل أن يكون شاعر (الغرام) ، وإلا يكونه في ذات الوقت . نشأ هذا الاختيار أصعب من معضلة تقوم على اعتبار ذات الشاعر بديلاً لواقع الموضوعى ، كما لو أن هناك إمكانيات للاختيار . الواقع يحدب هذا على الأقل استناداً إلى ما حاول أن يثيره الحمري في ديوانه من قضايا ، وبالمقابل فهو يحدب المنهج الحاطيء الذى ابتدعه بعض الشعراء المغاربة لتعبير عن معطيات الوضع الاجتماعى والسياسى في بلادنا (10) . وكان أن فضل الحمري القيام بهذا الدور في أسلوب تعامله مع المرأة ، ومع الواقع حسب . دون أن يمتد رؤيته واضحه أراءها معاً .

(المرأة) عند الحمري في قصيده رؤيا (ص 8) - عدا أنها موضوعة في اضر للتأمل الشعورى أحرف - تلتى دائماً في صورته واحده ، مادة ، وصف (/) . هى المرأة - الحرافيه التى حولها الفجر البورجوازى الى سلعة باع ، ثم وجد الشاعر نفسه وجهاً بوجه أمام هذه المرأة النمودج ، اوصافها تكاد تكون جاهزه . وبديهي أن عواطف الشاعر نحوها كانت هى جملة العواطف التى يطفح بها الشعر العربى ، نفس العواطف التى تحررت في الشعر الحديث في المغرب وتكاد تطبع فترة استعينات كاملة (8) . (النص رقم 3) .

الواقع الصغير الذى يتردد صداه في ديوان الحمري كاختيار ثانى ، ليس هو مشروع بحث جدى عن المعطيات والوقائع التى تعج بها الساحة الوطنية ، فقط انه الاهتمام الصغير ، وهو يعكس جانباً محدداً من مشروع بحث الشاعر عن موصوف آخر ، الحمري لا يأخذ الواقع كلا ، لا يرفضه كلا ، انه يجزؤه الى وقائع صغيرة (بطالة - جوع - بائع الماء - ماسح الاحذية ...) دون أن يبحث عن دلالات هذه الوقائع في إطار الوضع الاجتماعى والاقتصادى ، في محاولة لضبط قانون الصراع داخل المجتمع . وأعتقد أن ما يقنى الشاعر عن هذه المحاولة يتحدد فيما يلى :

- 1) غياب وعى سياسى بغياب الموقف الفكرى تجاه ما هو ملموس .
- 2) مستوى الوعى الطبقي الذى يضع الشاعر أمام معضلة انتماء حقيقى لشروط حياته الاجتماعيه ، وأمام تطلعاته .. في محاولة لاخترق جدار التذبذب والبحث عن بديل يرضى طموحاته الفردية ، أن الحمري لا محالة

يربط بواقع ما ولدك ارتباط سطحي ، اى انه يبقى في حدود الاحساس
الاحلاقي بمشكلاته وازماته .

7 - يمكن ان نلاحظ الآن ان الاختيار الصعب ، الذى سبقت الاشارة
اليه ، يبقى قائما في التجريه الشعرية ، لانه يشكل احدى عناصرها (المرآة
- الحب) ، المرآة - الخرائية على طريقة نزار ليست الا مظهرا بارزا
لمجموع التكوين البورجوازي الصغير الذى قدمته التجريه في فهمها لبانى
اموضوعات المتاوله كما ان الواقع الموضوعى ليس الا مظهرا اخر . وهـ ،
التناقض بين الاحساس المفجع بالذات المسئله ، لانها تحب - نكره ،
وبين مجموع القضايا في الاطار الاجتماعى - من تحديد هذا التناقض يظهر
الان بجلاء كامل المفهوم الشعرى ومستويانه وحتى ادواته اتى يستعملها
الشاعر في التعبير والاداء ، كمفهوم يخضع للتطور لحساب التجربة الذاتية
اى المفهوم الذى يقود الحمري الى تصريف طاقته الابداعية في استهلاك
الموضوعات المرتبطة بعواطفه وتؤونه الصغيرة . فالحقيقة التى ابدعها
الشاعر (كل القصائد في اغرام هزيلة - والشعر كان لاكدح الطبقات)
تحولت في ديوان الحمري الى وهم حقيقى ، الموقف المضاد ايضا تجسده
نزار - ولانه ليس موقفا مضادا سياسيا وفكريا - انكسرتحت وطأة الاتجاه
الذى تبنى في الديوان اكثر مما تمثل في تسيدة (همسة) كتصيدة تفضح
الافلاس لمحتوى توجه (شعراء الغرام) ، وتفضح ايضا الحمري من حيث
مثل الموقف المضاد لفظا . الان اذا كانت التجربة الشعرية في الديوان تؤكد
سيادة التفكير البورجوازي الصغير فان الموقف الفكرى في الديوان من نفس
المنظور يمثل اتجاهين :

(ا) الاتجاه المرتبط بالتجربة الذاتية .

(ب) الاتجاه المرتبط بالتجربة المعاشية في الواقع .

8 - من أجل تحديد وضعية الاخر - المرآة في ديوان الحمري ، ومن
نفس الزاوية التى اراد منها الشاعر أن يتجاوز القيم العاطفية المتعارف
عليها بهدف رسم خطه الفكرى ، سأكون مضطرا أن أستعمل تعبير (الوضوح
الرومانسى) لانه يكون التجربة الشعرية ويشكها - ليس المقصود التجربة
الشعرية المطلق - بل تلك التجربة التى ارتبطت في الديوان بالمرآة ، ثم
ارتبطت بالواقع في محاولة لوضع حاجز ما بين تلك المرآة (مجموع القيم
العاطفية) وبين الواقع (كهدف يقوم خارج الذات ، اى تبقى قيمته غائبة) ،
الوضوح الرومانسى الذى نطق به الحمري شعرا ، وعبر به عن هواجسه
واحلامه حيال المرآة ، وهو اذ يعكس الفترة التى كان فيها على الشاعر
أن يحدد طموحه ويرسم له اسبيل ، يعكس بالمثل الموقع الذى ظل يراوح
فيه بين حب المرآة وعذاب المرآة .. انه بالتحديد الممكن الوحيد ، أمام
تحديات الواقع الذى وجه الحمري الى التسليم بـ (صحة) تراث موجود ،

منعلقا بإمكانية إعطائه نفسا جديدا ، ولكنه يقع في نفس الموضوعات التي تمت المصادقة عليها في الشعر العربي بالإجماع . (النص رقم 4) .

9 - الارتباط بالآخر في تجربة الحمري موضوعيا هو الارتباط بالقيم الاقطاعية - البورجوازية فكريا السائدة في العالم العربي . ان هذا لا يعنى أن الشاعر يختار هذه القيم عن وعى ، بل ينحاز اليها كما ينحاز الحوى (انعام واصداء (9)) ، او السولامى (حب) ، او رتسيد المومنى (حيمبا يورق الجسد) لأنها ترتبط خارج دائرة مفهوم الشاعر باطار تاريخى صنعته الفكر انحرافى ، وضمن شروط استمراره في حلقاته انها القيم التى ترتبط بالانماط الاساسية للفكر السائد في المجتمع المغربى ومن ثم المجتمعات العربية . الارتباط بالآخر - المرأة عند الشاعر يجد تبريره الدليلى في الموقف العام للفكر السائد من المرأة ، ويجد تبريره ايضا في تنوع العديد من التصورات المرتبطة باطارات تاريخية (الدين - علاقات الإنتاج) . ولما لم يحاول الحمري طرح الاسئلة المشروعة : ما هى المرأة ؟ ما دورها ؟ اخذ مباشرة بالتصورات المعروفة وعرضها شعرا . (النص رقم 5) .

10 - سأحاول أن اطور المسألة ، وأطرح التساؤل اتالى : هل كان بإمكان الحمري ان يتجاوز المرحلة التى انطلق منها ؟ بمعنى هل كان يملك وضوحا فكريا يؤهله لطرح المسئلة تاريخيا (انطلاقا من المرحلة) نقديا (انطلاقا من مفهوم فكرى - سياسى) علميا (في اطار الوضع الطبقي داخل المجتمع) ؟

النقطة الاولى . يرفض الحمري أن يتكلم عن ديوانه الاول ، ويرفض ذلك لانه يعتقد أن تجربته فيه تعكس مرحلة متخلفة عن طموحه آنيا ، وهذا أمر طبيعى اذا قيس بواقع التطور . ان هذا الرفض يعكس تماما الموقف الاخلاقى الذى يحاصر الشاعر وهو لذلك يبدو رفضا مجانيا .

النقطة الثانية : التجربة الشعرية في ديوان الحمري ترتبط فى مضمونها العام بواقع ومستوى التجربة الشعرية في المغرب والعالم العربى ، واعتقد أن المرحلة التى انطلق منها الشاعر في ظل هذه التأثيرات أخضعته لمكوناتها الفكرية والاجتماعية وهو لذلك لم يكن مستعدا - انطلاقا من غياب وعى ناضج - لوضع تجربته في تعارض مع سلطة هذه القيم .

النقطة الثالثة : ان المستوى الطبقي الذى عبر عنه الشاعر في الديوان عكس القيم المتعارف عليها بخصوص المرأة والحب والحياة ككل ، ولذلك كانت هذه القيم أحادية الجانب ، بمعنى مفرغة من محتواها الايديولوجى (لصالح من ؟) . هل المرأة التى نعثر عليها في الديوان هى فعلا المرأة التى كان يبحث عنها الحمري ؟ ألم يكن بالتجديد واقعا تحت سيطرة الفكر البورجوازى أساسا في فهمه للمرأة ودورها ؟

النقطة الرابعة : وضعية المرأة ، ليس في الشعر المغربى وكفى ،

بل وفي الشعر العربي ، جاءت نسخة طويق الاصل للقيم التي يورثها انفس
الساند على امتداد حقبة طويلة (10) .

الفظة الخامسة : المرأة في شعر الحمري موضوعة في اطار
عاطفى صرف .

— قصيدة (شاطيء ص 12) — الهيس الساحر — الروح والجمال
— الدموع والمحاجر — الخجل .

— قصيدة (حلم ص 17) — رعشة القلب — ملهوفة — القبلات
والصمت .

— قصيدة (ماتت الحسناء ص 19) — شفق الغروب — اليأس
اشاحب — دمع الجفن .

— قصيدة (لو تعلمين ص 22) — العبرات الهائمة — طيف — القلب
الباكى — الاسى — الحنان .

— قصيدة (ياموت ص 24) — الفؤاد — الحزن — الدموع —
الشوق — القالب .

— قصيدة (بعد ايام ص 26) — الفؤاد واللوعة — الهناء والفرق
— اليأس .

— قصيدة (عند ما تغنى الشموع ص 28) — الارق — غؤدى من
هواها — الحزن — طيف الحبيب .

« سترددن قصائدى عن وحدتى

تحكى غرامى والسهاد وحرقتى

فدعى فؤادك قبلتى

يا زاهرتى .. »

من هذا المنظور ذاته معقدا ومتشابكا ، يصبح الجواب عن التساؤل
الذى طرحته من قبل ممكنا : ان الحمري يفتل في تقديم نفسه

خاليا من شواغل المرحلة ولذلك فهو يلخصها بوعى سطحى وادراك مبهم .
انه يقدم نفسه من ضمن التشكيلة الفكرية والسياسية التى يعرضها الفخر

الساند للاستهلاك المحلى (ودائما يسقط في مستنقع الفرغرة الطويلة) (II)
11 — الوضوح الرومانسى الذى اشرت اليه في البداية يجد محتواه

الفعلى من جهة في الوضوح الذى يطبع قصائد الحمري (دون ان يكون
هذا الوضوح موقفا فكريا) ومن جهة في القيم العاطفية ، وهذا يعنى ان

الشاعر يصدر في تجربة الديوان الاول عن تصور خاطيء لطبيعة العمل
الادبى في مجتمع متخلف وبالنتيجة عن تصور خاطيء لدوره . معناه ان

الحمري اراد من تجربته ان تكون عنوان تفرد بتصورات هى في الواقع
شائعة ، ومعناه ايضا ان الشاعر في مسألة معالجة هذه القيم يبدأ من

الشعر (بدءا من التصور العاطفى للحب ، الى التصور العاطفى للمرأة ،

الى النملق أخيراً بصور الفكر الاسطوري — المرأة هي المظهر الذي يجب ان يفتسل فيه من اندنوب) ، الا ان ذلك في التليل الاخير لا يمكن فصله بادهه عن مستوى التجريه زمنيًا ، وعن العلاقات التي كونتها وى ذات الوقت عن ثقافته ووعيه . الصفر أيضا ان يقول الحلوى (دنيا من السحر في اجفانها كمنت — وعالم خلف هاتيك الربى استترا) ، وفي تطابق غير نام — بما يقول الحمري (للافق مدت جفنها في دمة لم تخرق — وترددت اهاتها أغروده بالمعزف) (ص 21) ، يبقى ان اشاعر في محاولة لخصر تجربته عاطفيا ، انتهى الى وصف تجارب الاخرين دون ان يكون هناك في بعض الاحيان أى تعارض . ان الوصول الى هذا التحديد يعنى بالنسبة الى محاولة التاكيد على ان غياب الوعي السياسى والطبقي عن مضمون التجريه ، يعنى اماما التزكية اشريه للعلاقات الاجتماعية والفكرية الكائنة ، واهيانا اندعاية لها من زاوية خاصة ، في وقت كان بإمكان الحمري فيه ان يطرح التساؤلات المبدئية ، كيف يجب ان أهمم الواقع الموضوعى ؟ وعلى اى اساس ؟

12 — الحمري ليس شاعرا فوق الطبقات ، ولا يمكن ان يكون ، وهذا يعنى بالضبط انه يصدر في تجربته عن واقع محدد الملامح والصفات أى (من حياة مجتمع معين في العقل الانسانى) ، هذا الطرح يجيب كما اعتقد على : من اين ينطلق الشاعر ؟ بتعبير « جارودى » (د عمل فنى اصيل يعبر عن شكل لوجود الانسانى في العالم) (12) . بمعنى يطفى من ارضيه ملموسه بهدف الوصول الى تصور جزئى او كلى للوجود الانسانى ، لا اقول في العالم بل في المغرب . لقد تم ذلك عند الحمري بى شكل ايديولوجى (الشعر) اولا ، ووفقا لعمل هو تعبير ذاتى عن البورجوازية الصغيره تايا (الموقف) ، ومعنى هذا ان تصور الوجود الانسانى في المغرب يحمل ضمينا تصور الحمري نه متوشا وغامضا ، ومبتسرا ايضا . الانطلاق من الواقع في تجريه الشاعر يؤدى حتها الى تصور الواقع . ذلك التصور القائم في الذهن انطلاقا من وعى يحدده سلفا ، جاء الوعي في الديوان مشوشا ، فجاجت طبيعة التصور مشوشة . قلت القائم في الذهن ، ذهن الحمري ، المنقف البورجوازي الصغير . انه يقدم في الجزء الاول من الديوان نجادج بشرية ، تنتسب بتفاوت ملحوظ الى البنية الاقتصادية والاجتماعية القائمة ، الا ان القاسم المشترك بينها ، هو وجودها في حافة اقتصاد تبعى (الشحاذ — ماسح الاحذية — عاطل ...) . انها بتحديد اكثر نفاية هذا الاقتصاد (النصوص 6 — 7 — 8) .

13 — يصل الحمري في الديوان بين الذات والواقع الموضوعى ، ولكنه وصل ميكانيكى بمعنى يتم وفق تحديد مسبق لعلاقة الشاعر بالمحيط الذى يتواجد فيه ، ويفهم متخلف الى ذلك . ولانه وصل ميكانيكى فقد جاء

بعيدا عن طرح الدسبون الحقيقي لعلاقة العمل الادبى والفنى بينية الواقع السياسية والاقتصادية (الخاصين بمجتمع معين) . ولان ذلك يتم بفهم متخلف فقد جاءت الصورة العامة للواقع مهزوزة ، ذلك أن الشاعر كان يبحث فقط عن نماذج يحددها تصوره الخاص لوضعها الاجتماعى ، دون أن يهتم بوضعها الاقتصادى ، بمعنى كان يبحث عن اطار عام يوظف فيه افكاره بعيدا عن التساؤل حول ماهيته .

14 - الواقع القائم بعلاته فى ديوان الحمري يأتى محزوا انطلاقا من فهمه له ، انه لا يوضح التناقض (بين المستغل والمستغل) ، ولا يرسم مجرى الصراع ، بل يعتمد الى خلق تصور وهمى عن وضعية مزرية معاشة فعلا ولكنها غير محددة ، ان تصوره الاخلاق بقف عند تلمس الظاهر بوعى جنينى مرتبط باحساس الشاعر نحو طبيعة القضايا التى يعيشها ، ومن ثم يريد التعبير عنها ، ولكنه ينسى أن (الطغيان الاتطاعى والبورجوازي على المستوى الاقتصادى والاجتماعى يصبح فى مجال الثقافة طغيان الاتطاع البورجوازي أيضا) بمعنى أن الحمري يصل حتما الى تصور الواقع الموضوعى بطريقة مقلوقة ، أو هى طريقة أحادية الجانب .

15 - فى هذا الاطار هناك فى الديوان (ص 85 و 89) قصيدتان مضادتان . الأولى (حديث عن المعركة) تسجل بداية الحرب العربية الاسرائيلية :

ريح الشرق هبت من سبات
تريد العز للوطن الكبير
تباثيبر الضياء لنا انتصار
ونحن نخوض معركة المصير

الثانية تسجل نهاية الحرب العسة الاله اثلية ، انها تسجل الهزيمة المدتة فى المطن العريى .

بيدك كنت تحف تصنع من اصابعك السموم

قل لى اثقاتك الشحون (اليوم غضبا والهجوم)

انها يعكس طبيعة الوعى ومستواه الذى يقدمه الديوان لا فى فهم الواقع الاجتماعى والسياسى فحسب ، بل وفى فهم وظيفة الذات . هذا يعنى أن مستوى التحليل الذى قدمه الحمري فى معرفة ما هو موضوعى لم يكن وليد قضية بل امتدادا طبيعيا لمستوى معرفة الشاعر وقدرة تصوره ولذلك يقع فى نفس الخطأ ، بعزل الظاهرة عن مجمل القوى والعلاقات والروابط التى تحكمها . فى القصيدتين (الحرب - الهزيمة) فصلهما عن القوى الاجتماعى التى قادت الحرب وحصدت الهزيمة ، وفى الجزء المخصص لرصد ظواهر الواقع الموضوعى ، عزل الظاهرة (بطالة) عن محتواها الاجتماعى والاقتصادى وهكذا . اى أن مستوى التحليل فى الديوان يسير

في خطين متوازيين (الذات - الموضوع) ، دون أن يكون الرابط الذي يحدد العلاقة الجدلية بينهما هو الذي يقود الى التعبير عن صحة وعيها بمجمل الظواهر والقضايا المعروضة امام الشاعر (الوعى لا يمكن أن يكون أى شىء غير الكائن الواعى) .

16 - قالبتز المتعسف بين الذات والموضوع قاد الى معضلة . على أى أساس يفهم الشاعر هذا الواقع المعقد والمتشابك ؟ أثرت من قبل الى الموقف الاخلاقى الذى يطغى كمفهوم وحيد الجانب ، وهو ذاته يدلل على الحياد الذى احتاره الحمري في التعبير عن كل ما سلف ذكره (ان الثقافة والادب تنتسب جميعا في عالمنا الحاضر الى طبقات معينة وهى مرتبطة بانتهاج سياسة معينة ، وفي الحقيقة ان ما يسمى الفن من اجل الفن ، الفن الذى يقف فوق الطبقات ، الفن الذى ينفصل عن السياسة أو هو مستقل عنها ، شىء لا وجود له) وقلت ان الحمري يعكس فهما مغنيا ، ولان هذا الفهم كان معروضا عليه من الخارج ، أى من واقع تطيل فكرى سائد لعلاقات الانتاج وقوى الانتاج في المجتمع المغربى ، فهو لذلك لا يخاف المعلومات الاولية التى تروجها الطبقات المستغلة عن السلام الطبقي والاخاء والحببة ، ولهذا السبب جاء فهم الحمري تبريرا ، بمعنى أنه عند ما يعرض الظواهر الاجتماعية ، فهو يحاول أن يربطها بقوة خارجية (القدر) (انظر النص رقم 9) تمهيدا لعزلها عن مضمونها الحقيقى (الاقتصاد) .

17 - اصل اى مستوى طرح بعض الاسئلة الجزئية :

- 1) هل كان بإمكان الحمري أن يقدم طرحا متقدما لعلاقة موضوعية بين الذات والواقع القائم خارجها ؟
 - 2) هل كان بإمكانه أن يأخذ بغير التفسير البورجوازي للمرأة ؟
 - 3) في محاولة لتحديد الظواهر الاجتماعية ، هل وقف امام اختيارين ، الاول ، تحديد طبيعتها ، الثانى ، ردها الى أصلها ؟
 - 4) هل يسقط الموقف الفكرى والسياسى في الشعر ؟
- ان الشكل الذى كتب فيه الحمري لا يقيم ادنى تعارض بين دور الشاعر ووضعه الاجتماعى ، لان الفن ليس سوى أسلوب حياة (جاردوى) ولكنه ايضا الاسابب الذى يضع خطأ فاصلا بين دلالات التقدم ، ودلالات التأخر ، بوعى وفهم صحيحين يطرحان : لمن الادب والفن ؟ لانها مسألة مبدئية وأساسية .

التصوص :

النص رقم 1 -

خجولة يغار بعدك الغروب والمدى
بوجنتيك حمرة كعاشق اذا اهتدى

ومقتلاك لى ، هما معا أريد مرقدًا
بحيرتان كانتا تحدثان مسهدًا (ص 8)

النص رقم 2 —

إذا كان يمتعنا تصيد فى الهوى
فلاننا نحيسا مع الخفقان
لكننا واليسوم يقتلنا الطوى
فلسرب بيت للجياع يواتى (ص 63)

النص رقم 3 —

وشوقى الغريب فى لقائها بلا مدى
إذا التقت عيوننا وعانقت يد يدا

النص رقم 4 —

يا للدمى بالغروب وكم أثار خواطرى
فالقبة الأزرقاء القت قلبها للشاعر
حمراء فى خجل تطل على الغريب الحائر
وتموت بالشاطيء بقايا موجة كخواطرى (ص 14)

النص رقم 5 —

الدمع فى جفنيك من الم يزيد عذابيا
يالى من العبرات هائمة تثير فؤاديا
فالنوم لا يحلو ونكراها تنيب زمانيا
اجنؤ أمام الطيف ليلا كم أروم مكانيا (ص 22)

النص رقم 6 —

جن المساء
والشمس تفنى فى احتراق
وصوته
قد لا يطباق
« الماء » نداء فى اختناق
طول الزقاق
والسطل حول السطل تبدو فى عناق
ما ذا أكل ؟
أين البيت ؟
لا لا تسئل

واللص لا ، ما عاد يرعبه الضياء
هو بامع الباء الكئيب (ص 73)

النص رقم 7 —

حببتي مات الهوى

والطفل يلتهم السجار
صندوقه البالي بجانبه يغار
فالاصدقاء

للمهنة المعطاءة باتوا كثار (ص 75)

النص رقم 8 -

في كل يوم
كم وليد

وغدا سيزداد العدد

والحر يقسو

والحصان بلا وتد

والמיד عندي كالحداد

صوتى يضيع مع الجوع بلا جواب

نهما هنا تبكى السماء

ولا بذار - وها هنا الصيف الجميل - ولا ثمار -

اليوت ها أرض يباب (ص 84)

النص رقم 9 -

أو ما كفاك الدمع في صميم الحجر - والعايرون

طريقتهم وعلى سفسر

وفي عيونهم حديث القبدر - الى متى نظل نحلب

كالبقر ؟ (ص 80)

نوفمبر 73

هوامشي :

- (1) الحب مهزلة القرون ، مارس 1968 ، مطبعة الاندلس ، الدار البيضاء .
- (2) نزار قباني ، قصتي مع الشعر ، منشورات نزار قباني ، 1973 بيروت .
- (3) قولة شهيرة للكاتب الصيني ، لوه من
- (4) المقصود بالضبط طبيعة فهم بعض الشعراء المغاربة لموضوعات المرأة - الحب - الواسع .
- (5) لا مجال للمقارنة بين نزار وعنبية ولكن بخصوص المرأة يمكن ان يعثر القارئ على تصورات عامة مشتركة بينهما ، مع فرق واضح في فهم كل منهما لدورها .
- (6) اثرت هذه النقطة من قبل في دراسة عن بندقية (مجلة أتلان ، السلسلة الجديدة ، العدد 7) وبالضبط في معرض البحث عن الموقف الفكري في الشعر الحديث في المغرب ، من الواقع

الاجتماعى فى بلادنا .

(7) يتكرر هذا الموقف فى العديد من الانتاجات الادبية الصادرة فى المغرب ، فى الشعر والقصة بصورة خاصة (نفس التصور يلتقطه ادريس الخورى فى مستوى مختلف بعض الشيء ، وهو حتما التصور الذى يلغى دور المرأة ككائن اجتماعى — انظر مجموعته حزن فى الرأس والقلب) .

(8) الاشارة هنا تنسحب حتى على عناوين بعض المجموعات الشعرية التى صدرت فى هذه الفترة (حب ، السولامى — اهدانى خوخة ومات ، صبرى — اشواك بلا ورد ، بندفة) .

(9) نشر دار السلمى ، 1965 .

(10) (لا ريب أن نشوء البورجوازية العربية اسهم فى تزعزع البنية التقليدية للمجتمع العربى ، وتناول بالتحديد تفكيك القيم الطائفية والعشائرية والعائلية وظهر تناقض صدامى محدود بين القيم التقليدية هذه وبين قيم المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية . الا ان الاتجاه السائد حتى الان هو لصالح تكون مجتمعات استهلاكية عربية ، مع تكون متحدات انتاجية . والمرأة العربية تجد نفسها أمام تجربة الاحتواء الجديد الذى يجرها نحو المجتمع الاستهلاكى . ذاك أن المجتمع الاستهلاكى بطبيعته ينزع الى تحويل الانسان الى حيوان مستهلك ، ويحتاج بشكل خاص الى المرأة لممارسة استغلاله عليها من خلال شعائر « التحرر » و « الرقى » (ص 28) ، د . خليل أحمد خليل ، المرأة العربية والتغيرات الرئيسية فى عصرنا — دراسات عربية ، يونيو 1973 العدد 8 — انظر ايضا ، المرأة واليسار العربى ، عبد الله زخريا ، مواقف ، الممدد 12 .

(11) تمبير لعبد الكريم الطيبال .

(12) غارودى ، واقعية بلا ضفاف ، ترجمة حليم طوسون ، دار الكتاب العربى ، 1968 ، ص 225 .